

## وحش الحضارة حين يتلغ سلالاته

المدينة

شهادة وفاة لمكان صعد إلى السماء



● الإنسان التي تفخر بانها حققت التقدم في العلوم والتكنولوجيا، لم تحقق المقدر نفسه من التقدم في القيم. حتى أصبح الحديث عن "قيم إنسانية" مطلباً عنيدا. (باريس)

● المدن، في الأساس، جوهر الماسي الإنسانية، لأنها جمعت الوحشية البشرية وحاولت تنظيمها، وسنّت قوانين لردعها. في الغابة لا توجد خطوط للعبور، ولا إشارات مرور، ولا سيارات شرطة تجوب الطرقات بحثا عن مجرمين. (بيروت)

وضجيجا أكثر هولا. فقط عندما بلغت الحمى مدائن المدن الكبرى، صار الموت يحصل على اللقاح أولا، لتعرف كم أن تلك الحضارة حضارة "إنسانية" فعلا.

المدن، في الأساس، تحولت إلى جوهر الماسي الإنسانية، لأنها جمعت الوحشية البشرية وحاولت تنظيمها، وسنّت قوانين لردعها. في الغابة لا توجد خطوط للعبور، ولا إشارات مرور، ولا سيارات شرطة تجوب الطرقات بحثا عن مجرمين. ولئن أصبح من المستحيل أن تكتب للمدينة شهادة وفاة، فقد ظل الموت يتسلل إليها ليخطف منها الروح.

مع ذلك، وبرغم كل ما نغرق فيه من ضجيج الأزمات واختناقات العيش غير الكريم، فلا يبقى في النهاية إلا الصمت. صفر. لتكتشف أن الحياة خدعة، وإنها صفر مخبوء، ينتظر ساعته لكي يبلغ القول الأخير.

**التنقل بين الحواضر بالعربات التي تجرها الأحصنة، كان صعبا؟ فمن قال إن وصول البريد بعد ثوانٍ أفضل من وصوله بعد شهرين؟ ثم من قال إن الحضارة السومرية أو البابلية أو المصرية القديمة، أكثر تخلفا من "الحضارة" الراهنة؟ أهذه الأخيرة حضارة أصلا؟ في ماذا؟ بالقتل الجماعي؟ بالإسلاح النووي؟ بالتمييز العنصري؟ بالاستغلال الشنيع للموارد؟ بالفساد؟ بالتلوث؟ بالتغير المناخي؟ بالتوزيع العادل للفقر بين "دول الجنوب" أم بتسليح البشر؟**

**فهل اكتسبنا مقادرا أكبر من الحرية؟ هذه كذبة. الحرية توفيت منذ أن بدأ الإنسان يبيع قوة عمله ليعيش. واليوم أصبح مستعبدا لكل شيء، بما في ذلك عبوديته للتكنولوجيا. وهذه أصبحت قيديا لا يمكن التخلص منه. ونسعد أنفسنا بالبحث لها عن "قوائد"، كالعبد الذي يتغزل بكرم مالكه.**

**والموت، هو نفسه الموت، من قبل ومن بعد. لم يتغير فيه إلا القليل. زادت أسبابه فحسب. واليوم، فإن الذين يموتون بأمراض الفقر والجوع، أكثر من الذين يموتون بوباء كورونا.**

**الليست هذه قضية كانت هي التي تستحق الـ11 تريليون دولار أنفقناها المصارف المركزية لتمويل البطالة في الجزء الغني من الكرة الأرضية؟**

**جوانح عابرة**

الجوانح المقيمة تكلف حيوات الملايين من البشر أكثر بكثير من الجائحة العابرة. وعلاجها ممكن. ولكنها لم تبلغ المبلغ الذي يتطلب قلقا هائلا

هوغو، إلى مؤلف رواية "الف ليلة وليلة". لقد كانوا بشرا. ولسنا حيالهم سوى كائنات غريبة.

من قال إن التنقل بين الحواضر بالعربات التي تجرها الأحصنة، كان صعبا؟ من قال إن وصول البريد بعد ثوانٍ أفضل من وصوله بعد شهرين؟ ثم من قال إن الحضارة السومرية أو البابلية أو المصرية القديمة، أكثر تخلفا من "الحضارة" الراهنة؟ أهذه الأخيرة حضارة أصلا؟ في ماذا؟ بالقتل الجماعي؟ بالإسلاح النووي؟ بالتمييز العنصري؟ بالاستغلال الشنيع للموارد؟ بالفساد؟ بالتلوث؟ بالتغير المناخي؟ بالتوزيع العادل للفقر بين "دول الجنوب" أم بتسليح البشر؟

فهل اكتسبنا مقادرا أكبر من الحرية؟ هذه كذبة. الحرية توفيت منذ أن بدأ الإنسان يبيع قوة عمله ليعيش.

واليوم أصبح مستعبدا لكل شيء، بما في ذلك عبوديته للتكنولوجيا. وهذه أصبحت قيديا لا يمكن التخلص منه. ونسعد أنفسنا بالبحث لها عن "قوائد"، كالعبد الذي يتغزل بكرم مالكه.

هو نفسه الموت، من قبل ومن بعد. لم يتغير فيه إلا القليل. زادت أسبابه فحسب. واليوم، فإن الذين يموتون بأمراض الفقر والجوع، أكثر من الذين يموتون بوباء كورونا.

الليست هذه قضية كانت هي التي تستحق الـ11 تريليون دولار أنفقناها المصارف المركزية لتمويل البطالة في الجزء الغني من الكرة الأرضية؟

**جوانح عابرة**

الجوانح المقيمة تكلف حيوات الملايين من البشر أكثر بكثير من الجائحة العابرة. وعلاجها ممكن. ولكنها لم تبلغ المبلغ الذي يتطلب قلقا هائلا

أن يعيشوا حياتهم كل بحسب ما يطعم لا بحسب ما يحتاج. قدمت لهم المدينة كل شيء، وأخذت منهم كل شيء. والذي امتلك البيان ليقول، صار يستخدمه ليصخب، ويثور، لأن أحدا ما، داس على بطنه، فصرخ.

نحن نصخب اليوم، أكثر مما نقول. لنكتشف عن أزمة تلت أخرى، حتى أصبح من الصعب للغاية أن تواجه الضجيج بغير الضجيج، العنف بغير العنف. وعندما لا يفهم الآخر ما تقول، تبدأ بالصراخ مظه. فتقلده لترغى في أزمته وتنتشى أزمة أخرى لنفسك.

أحد أهم مميزات الكتابة هي أن وجهها الآخر صمت. الكلام مدينة، بينما الكتابة ريف.

**قيم المدينة**

المزيد يعثرون على سحر في الهرب بحثا عن سبيل للعيش في قلب الطبيعة. إنها أقل وحشية بكثير من العيش في مدينة. قامت في الأساس على معترك شديد الهمجية. وتقول نواتهم: غادرننا ما كان يحسن أن نبقي فيه. وبعضهم يبحث عن مكان آمن، ولكن أبعد ما يكون عن أن يصله بشر، تحاشيا للصخب، ولأزمته، ولوجود بات في كل وجه من وجوهه تعبيرا عن أزمة.

الحياة التي تبدو عاجزة عن الصمت، ليست سوى اختناق حقيقي بما تراكم فيها من كوارث تستدعي الصراخ. التظاهرات برهان. وعندما طاف الوجع على الوجع، صار المتظاهرون يقرعون الطنجر. لم يعد الصراخ يكفي. تحب أو تكره، تتفق أو تختلف، تملك أو لا تملك، تصارع أو لا تصارع، تكسب أو تخسر، تقول أو تصرخ، ما المعنى من هذا كله؟ ما الفرق حقا، إذا كان الأمر سوف ينتهي إلى رقم صغير، في معادلة حياة سارت في الطريق الخطأ منذ وقت بعيد؟

الإنسانية التي حققت التقدم في العلوم والتكنولوجيا، لم تحقق المقدر نفسه من التقدم في القيم. حتى أصبح الحديث عن "قيم إنسانية" مطلباً عنيدا، وكاننا لم نعيش 600 ألف سنة قبل ما نرقل به الآن من نعيم "التقدم".

من أين افتقرت الطرق على "الإنسانية" لتصبح قيم الحياة الكريمة هدفا تعجز البشرية عن بلوغه؟ من أين؟ ولماذا؟ ألم تكن بشرا من قبل؟ العيش كان "صعبا" بالمقاييس الراهنة. هذا صحيح. ولكن لماذا انتهينا إلى أننا كلما حققنا المزيد من التقدم، كلما حققنا المزيد من الوحشية والقهر والقيود؟ مبتكرات التكنولوجيا الحديثة تبدو رائعة. وجعلت الحياة أسهل. إنما بالنسبة إلينا نحن، وليس لمن عاش على طول المسافة من زمن دوستوفسكي وتولستوي وأميلي برونسكي وفيكاتور

الأفضل لكي تمضي الحياة على أثره، إلا أنه رقم في معادلة أخرى، تتشكل من أرقامها الخاصة على أي حال.

**ما وراء الصخب**

بعض الحيوانات المهمة تنتج حيوات ملهمة أخرى. شيء يشبه الاكتشاف العلمي الذي يُنتج اكتشافا علميا آخر. التطور الإنساني إنما يحصل على هذا الأساس. لكن الحياة تبدو أفضل ليس بمقاييس الرفاهية وتخفيف الأعباء، ولكن بمقاييس ما ينشأ من قيم تدفع إلى السكنية والاستقرار، فينحسر السجال، وينطفئ اللغو، ويعلو الصمت. دون ذلك، فإنها جحيم.

وفي الصمت تكمن الكثير من الأسرار. إنه احتواء واستيعاب وقبول واسترخاء حيال كل ما قد يبدو ناتقا أو غريبا أو مثيرا. ولكننا نزداد عجزا عن بلوغه، إلا بالحلول القصوى، بسبب ما تراكم من أنماط الحياة المدنية، والتي أصبح الضجيج جزءا من طبيعتها.

النفوس المتحضرة، أكثر هدوءا بسبب ما يتسرب إليها من فضائل الصمت. الصخب الذي تعيشه في المدن الكبرى، سرعان ما ينحسر إذا ما قادت سيارتك إلى بلدة نائية. سوف تعثر على المزيد من القبول، وسوف تجد متسعا للتنفس. إنه متسع الصمت. قد تخدعك الطبيعة بجمالها، ولعلك تقول "إنه الهدوء". ولكنه الصمت على وجه الحقيقة. وكلما تتبعد أكثر، تجده أكثر. وهو وجه من وجوه الخلود لأنه الأقرب إلى الأبدية. الصمت بلا بداية ولا نهاية. وعندما تفرغ معادلاتك الرقمية كلها، فإنك تتحول إلى وجود صامت، وتصبح جزءا من صمت ممتد إلى ما لا نهاية.

إذا كان الصخب هو المقابل الطبيعي للحياة، وتفاعلاتها وانفصالاتها المختلفة، فالأمر تعبيري عن أزمة. وهذه إنما كان البشر هم الذين صنعوها بانفسهم عندما "تمدنوا". صنعوها لأنهم أرادوا

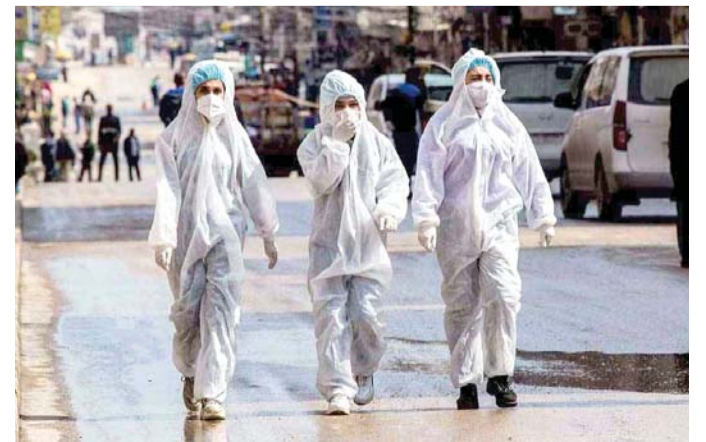
علي الصراف  
كاتب عراقي

ربما كانت الحياة خدعة. ولكن المدينة تجعلها خدعة مضاعفة بما تضفيه عليها من ركام المخادعات الأخرى. موجة الوفيات العارمة التي تحتاج هذا الكوكب هي نفسها خدعة.

لأن الناس تموت في العادة. الإهتمام بنوع من الموت دون سواه لا يغير شيئا. أشخاص تعرفهم يتحولون إلى سطور. ثم ينقضي الأجل. أجلك معهم بالدرجة الأولى. والأيام تمضي إلى مستقر لها. إنها تمضي كما تراها وكأنها سائرة إلى الأبد. ولكنها سوف تتوقف عند لحظة ما. عدك للأيام هو الذي سيتوقف طبعاً. ولكن كل عد آخر سيفعل أيضا.

عش حياتك لتحب وتكره. ولكن ماذا يبقى مما أحببت أو كرهت؟ ماذا جنيت مما جنيت؟ لو كانت الأشياء والمشاعر أرقاماً في معادلات، وإنها هي التي تشكل معادلة وجودك، فإنها تتوقف عن أن تكون شيئاً ذا قيمة عندما ينقضي أجلك أنت. يبقى منك رقم صغير في معادلات الآخرين. ويختار بعضنا الرقم

**الصخب الذي تعيشه في المدن الكبرى، سرعان ما ينحسر إذا ما قادت سيارتك إلى بلدة نائية. سوف تعثر على المزيد من القبول، وسوف تجد متسعا للتنفس. إنه متسع الصمت. قد تخدعك الطبيعة بجمالها، ولعلك تقول "إنه الهدوء"**



● مبتكرات التكنولوجيا الحديثة تبدو رائعة. وجعلت الحياة أسهل، بالنسبة إلينا نحن، لا لمن عاش على طول المسافة من زمن البشر الحقيقيين. (دمشق)